

# شاعر عراقي سعيد بعزلته

ياسين طه حافظ

بين وحش الذاكرة وأجنحة البجع



تجربته الشعرية هي انعكاس لتجربته الحياتية. ففي أعماق حافظ تتصارع شخصيتان. هناك الريفي اليمس • نضارة الأشجار بتوق رومانسي يعيده إلى لحظة الاكتشاف الأولى، وهناك رجل المدينة المتأنق. من يوسف الصائغ وحسب الشيخ جعفر.

تحولات علاقته بالعالم. غير أنه في كل الأحوال كان عقلانيا يقف متمسكاً بدهشة أمام عالم لا يمكن احتواؤه إلا عن طريق إعادة صياغته.



**كتابه الشعري الأول «الوحش والذاكرة» أواخر الستينات سليله أكثر من خمسة عشر كتاباً شعرياً. إلى جانبها قام حافظ بترجمة عدد من الكتب الروائية والجمالية، في مقدمتها ثلاثة أعمال للروائي الإيطالي إيتالو كالفينو**

«في الخرائب حلية ذهب» عنوان أحد كتبه وهي جملة، فيها ما يمكن أن يوضح علاقته باللغة. وهي علاقة قائمة على الصقل كما يفعل الصائغ. ما من كلمة يمكن استبدالها بكلمة أخرى أو حذفها. ليس من أجل المعنى بل لأن شحنة الشعر ستكون ناقصة. لا اظن الشاعر يكتفي بالكلمات مثلما تحضر لحظة كتابة القصيدة، بل أنه يعيد النظر فيها مراراً ومرات إلى أن يتأكد أنها الكلمة المقصودة. القصيدة لا تكتمل إلا بعد أن تمر بمراحل يغلب عليها طابع الكتابة، بما تنطوي عليه من عمليات رقابية.

«يتفتح الزهر المطالب بالحياة يوم مخباها فيحبل الهضاب ويلم في الوديان أنجمه ملونة وتحقق في فضاء الله قبرة الشباب. حتى تجيء لنا الحياة بيزة أخرى مدججة وغاصبة تدوس على الرقاب فنعود نسحب أرجلنا تعبت من اللاشيء ثم نلوذ، نرجو بقعة من شمس ذاكرة تدفئ أو تعوض عن غياب. حتى نزول ممالك أولى ورفناها، فليس

سوى بؤساء، في أطمارهم يتسولون وعوالم نكصت وأبراج خراب. الأرض صدت وجهها، وتدفرت بجفاف آب ما عاد من خيط على الأفق البعيد أشجارنا بيست وأوجهنا تموت على الكتاب». عرف ياسين طه حافظ كيف يتحكم بعاطفته، فكان شعره أشبه بحفلة تتصادم فيها المشاهد البصرية بالأفكار، فلا ينحاز إلى الوصف أو إلى التأمل التجريدي.

حاصلاً قنديه ليضيء عتمة الطريق في اتجاه آخر ما ينتجه الأدياء العالميون من نصوص في بلد، حرمة العزلة من رؤية العالم واللقاء به والتعرف عليه. كانت «الثقافة الأجنبية» نافذة فتحتها الشاعر بآريحية وخفة ورغبة عظيمة في تنفس هواء الحرية.

## الشاعر ملهماً ورقبياً

سبقتي الشاعر بالتأكيد. غير أن أثره من حافظ سبقتي عالماً بثقافة أجيال وهبتها مجلة التي هي مجلة رسمية فرصة الاطلاع على الأدب الأجنبي. «سادتي ما قصصت عليكم حكايات أباثنا أو كشفت خيانات أصحابنا. أنا ما أضحككم سطوري ولا أرسلتني ملهمة الشعر كما أجيء لسادة هذي القصور باحلى الثمار وأقوى النسور

فأنا رجل صانع جاء من عالم آخر يصنع من فكرة طائر، يصنع من طائر فكرة، يصنع من نفسه خيراً لنفسه خيراً للقصود». فيها مراراً ومرات إلى أن يتأكد أنها الكلمة المقصودة. القصيدة المنضبطة إيقاعاً وقافية إلى قصيدة النثر مسافة اجتازها حافظ كما لو أنه يفعل الشيء نفسه دائماً. كان الشعر هدفه، لذلك فقد كان يلهو بالأشكال التي يعرف أنها جزء من اللعبة وليست اللعبة كلها. قاداته طريقته الخاصة في التفكير في الشعر إلى أن يحدث تغييراً في الشكل ينسجم مع

لكالفينو عن لغة نائثة هي الإنجليزية غير أنه استطاع أن ينفذ إلى جوهر النصوص الأصلية بسبب تمكنه من أسرار الحكمة الشعرية التي كتب كالفينو من خلالها أعماله الروائية. سيُقال إن الشاعر هو الذي يبقى. ذلك صحيح، غير أنه في حالة ياسين طه حافظ حكم ناقص. وهنا لا أقصد المترجم الذي لا يرغب حافظ نفسه في أن يقف إلى جانب الشاعر بل أقصد الرجل الذي وقف وراء مجلة «الثقافة الأجنبية». ذلك المشروع الذي ترجمت إلى العربية من خلاله نصوص شعرية وقصصية ونقدية من مختلف لغات العالم. لقد وهب الشاعر وقته العزيز إلى تلك المجلة فكان في معظم الوقت محرراً الوحيد. قضى سنوات طويلة

عليها وأن يُرجئوا تاركين إلى زمنٍ آخر قلقها هكذا كبرت. عدت يوماً، خلعت رباطي وعلقتة وخلعت بلا أسف بدلة الحفل، جلد المهزج، ورأيتني أرجع بعد الغياب لذاك الطبق وذلك الحمصير، وأنا خجل من يدي ووجهي، خجل أنتي بعد كل الزمان، أرى ما رأى البابلي: الحقيقة من خشب، هي تحرق أو ياكل السوس أحشاءها، أو تكون مفعداً أو سريراً.

ولد في بغداد عام 1936. قضى صباه ومرأهته في بعقوبة، هناك حيث انتقلت عائلته. عاد إلى بغداد ليدرس اللغة الإنجليزية في كلية التربية بجامعةها ومن ثم يتخرج عام 1961. عمل في تدريس اللغة الإنجليزية. بعدها انتقل للعمل بوزارة الثقافة سكرتيراً للتحرير في مجلة «الطلعة الأدبية» وبعدها أسس مجلة «الثقافة الأجنبية» ورأس تحريرها. أصدر كتابه الشعري الأول «الوحش والذاكرة» عام 1969. بعده أصدر أكثر من خمسة عشر كتاباً شعرياً. إلى جانب ذلك قام الشاعر بترجمة عدد من الكتب الروائية والجمالية كانت في مقدمتها ثلاثة أعمال للروائي الإيطالي إيتالو كالفينو هي «مدن لامرئية»، «المصائر المقاطعة» و«السيد بالومار». وبالرغم من أنه ترجم

تكريسها انطلاقاً من كونها فاتحة الشعر الحر وذائقة أخرى كانت تتشكل وتتحول بتأثير التحولات التي شهدها الشعر في العالم. ياسين طه حافظ مثله مثل شعراء عراقيين مهمين آخرين لم يحظ بالشهرة في العالم العربي لأنه اكتفى بنشر كتبه الشعرية داخل العراق. يقترّب في ذلك من يوسف الصائغ وحسب الشيخ جعفر منذ بداياته كان تجريبياً بالرغم من أن شيئاً من السياب كان قد تسلل إلى محاولاته الشعرية الأولى التي قدمته شعراً قوياً. وعبر مسيرته الشعرية لم يكن حافظ من الأدياء الذين يجنون الاستعراض ولم يتملكه حب الظهور. لم أراه يقرأ في مهرجان شعري أو ملتقى أدبي. ربما حدث ذلك في وقت متأخر. ذلك لأن شعره لا يصلح للتواصل العلني. شعر يُقرأ بصوت خفيض.

## الواقف بين جيلين

شاعر مختلف. اختلافه فرض عليه عزلة شخصية وموضوعية مزدوجة. فعلى المستوى الشخصي دأب على تطوير تجربته الشعرية بعيداً عن المؤثرات والمظاهر الأنيقة، وعلى مستوى موضوعي لم ينضم الشاعر إلى جماعة فنية ولم يكن جزءاً من جماعة أدبية وفي ذلك فإنه ظل غريباً عن المشهد. تجربته الشعرية هي انعكاس لتجربته الحياتية. ففي أعماقه تتصارع شخصيتان. هناك الريفي اليمس نضارة الأشجار بتوق رومانسي يعيده إلى لحظة الاكتشاف الأولى، وهناك رجل المدينة المتأنق بلغة التقنيات الحديثة، المسلح بالمعرفة. الف حافظ بين شخصيته فكان شعره مزيجاً من رومانسية تضيء على الكلمات بعداً عاطفياً وتجريدية هي صنعة حياة مشتبكة بغموضها. لذلك يبدو شعره كما لو أنه حوار بين عالمين.

في قصيدة واحدة يتنقل الشاعر بخفة بين الحقول الشاسعة المستقلة تحت الشمس وشوارع المدن الفارحة بناطحات سحابها الحديدية. غير أنه غالباً ما يحسم موقفه ليعود إلى منبعه الذي يستعيد هو الآخر هباته باعتباره وهماً يستقر في جوف الذاكرة. «الوحش والذاكرة» هما طرفاً المعادلة التي لن تستقر. «جئت من قرية ربما اندثرت وتموت هنا نبتة سيئة بين أن يُشقق العابرون

**فاروق يوسف**  
كاتب عراقي

«وهج الله شَبَّ بجنحي البجعة، فطارت لتحط على بحيرتي الساكنة. ذلك ما كتبته يوماً حين تركت المنصة، لتنزل وتجلس جوارى على وشك التقبيل. لم تكن بيننا جلسات مسائية، ولا مواعيد، ولا حتى نظرات ذهبية راعشة، فكيف شب الوهج الإلهي بجنحي البجعة، لتطير وتحط على بحيرتي الساكنة». سيقف وحيداً دائماً. لم يكن ابن جيل بعينه. لا على صعيد الأفكار ولا على صعيد التقنيات. كان ابن تجربته الشعرية التي اخترقها الزمن فكانت مزيجاً من ذائقتين لغويتين. ذائقة تم



**مسافة صعبة يجتازها شعر حافظ، من القصيدة المنضبطة إيقاعاً وقافية إلى قصيدة النثر، كما لو أنه يفعل الشيء نفسه دائماً. كان الشعر هدفه، لذلك فقد كان يلهو بالأشكال التي يعرف أنها جزء من اللعبة وليست اللعبة كلها**

